

الحروف المقطعة بين تحدي القرآن الكريم وعجز البشر

الدكتورة/ فوزية أحمد الحسن طه

أستاذ مشارك في التفسير وعلوم القرآن - كلية أصول الدين - جامعة أم درمان الإسلامية

مستخلص البحث

إن الهدف الرئيس من كتابتي لهذا البحث هو الرد على البحث الذي نُشر عبر الشبكة الإلكترونية، ويقول فيه صاحبه المدعو سعد عبد المطلب العدل: إن الحروف المقطعة في أوائل السور ليست حروفاً على الإطلاق، وإن ردها إلى العلم الغيبي ضعف وتهاو، وإن نظريات علمية أثبتت أن الحرف يعني اللغة واللهجة، وعليه فهي لغة غير العربية معاصرة للقرآن.

يبين البحث خطورة مثل هذه الآراء، وأكدت نتائج البحث أن الحروف المقطعة حروف عربية كما أثبتها القرآن الكريم، وأوضحت الدراسة أن الإيمان بالغيب هو جوهر الإيمان. كما اتضح من البحث أن الحروف المقطعة في أوائل السور من المتشابه الذي يجب رد علمه إلى عالمه.

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن ليكون للعالمين نذيراً، والصلاة والسلام على من أرسله ربه داعياً إلى الخير بإذنه وسراجاً منيراً، وبعد ...

فإن للقرآن الكريم أكبر شأن في أمر الإسلام والمسلمين، فهو هديهم في شريعتهم، وهو النور الذي يستضاء به في أساليب البلاغة العربية، لذا فالقرآن الكريم موضع عناية المسلمين منذ القديم، فقد تتابعت أنواع التأليف فيه، أي في أحكامه وفي تفسيره وفي بلاغته وفي لغته وفي إعرابه، ولذلك نهضت العلوم والفنون تحت رايته.

وفي هذا البحث قصدت أن أتناول الحروف المقطعة في أوائل سور القرآن الكريم، وذلك لأن بعض المسلمين بدؤوا يجهلون فيها اجتهداً في غير محله، خاصةً عندما وقفت عبر الشبكة الإلكترونية على كتاب صدر تحت عنوان الهيروغليفية تفسر القرآن لكتاب يدعى سعد عبد المطلب العدل، والناشر: مكتبة مدبولي، يقول عن الحروف المقطعة في أوائل السور - بعد أن رفض جميع أقوال السلف فيها - إن الحرف في لسان العرب يعني اللغة واللهجة، وعلى هذا تكون الرموز التي تبدأ بها السور هي كلمات وجمل، ولما وجدنا أن هذه الكلمات لا تؤدي إلى معنى من المعاني في اللغة العربية، كان لزاماً علينا أن نبحث في لغة أخرى من اللغات القديمة أو المعاصرة للغة القرآن.

ووجدت في مدخله هذا نذير شر يترتب بالقرآن، يريد أن يخرجنا من لنته العربية التي شهدت لها آياته في مختلف سوره، ليصل إلى أن الحروف المقطعة أسماء وجمل في اللغة المصرية القديمة.

فأريت أن أتناول نظريته المطروحة هذه وأحاول الرد عليها، مع بيان الحجج والدليل. فرجعت فيه للمصادر المختلفة المتعلقة بالتفسير وعلوم القرآن، لبيان ما ذهب إليه العلماء، وكذلك آيات القرآن التي أثبتت أنه لسان عربي مبين، وبُيِّنَت خطورة مثل هذه النظريات والدعوة التي برزت من خلال هذه النظرية لعدم الإيمان بالغيب في قول صاحبها: "إن النظرية التي تعتبر هذه الرموز حروفاً قد بدأت تضعف وتهاوى، بل إن الافتراضات التي تخيلنا إلى أشياء غيبية أخذت الآن في الوهن والانحسار"، وكذلك قوله: "هذه الرموز ليست حروفاً على الإطلاق".

كل هذا دفعني لكاتبه هذا البحث، الذي رجعت فيه إلى أمهات المصادر في هذا الموضوع، وآمل أن أوفق فيه، والله ولي التوفيق.

المبحث الأول: الاستفهام بحروف الهجاء

وقع استفهام بعض السور بحروف التهجى نحو: الَمْ، الَمْص، الَمْر، كَهَيْعَص، طه، طس، طسّر، حمّ، حمّ عَسَق، ق، ت، وذلك في تسع وعشرين سورة (١).

(١) البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، ١/١٢١.

ما الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل تلك السور؟ مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها، فقيل: إنما ذُكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها (١).

ونجد أن الإمام السيوطي يعدُّ أوائل السور من المتشابه التي قال عنها: "إنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى"، كما أورد قولاً عن الشعبي في فوائح السور قال: «(إن لكل كتاب سرّاً، وإن سر هذا القرآن فوائح السور)»، وذكر قول ابن عباس: «(«آلـم» قال: أنا الله أعلم، وفي قوله: «آلـم» قال: أنا الله أفضل، وفي قوله: «آلـر» قال: أنا الله أرى)»، وعن ابن عباس في قوله: «آلـم» و«حـم» و«ت» قال: «(اسم مقطع)»، وفي رواية أخرى قال ابن عباس: «(«آلـر» و«حـم» و«ت» حروف الرحمن مفرقة)»، وفي قول آخر: «(«آلـم» الألف من الله، والميم من الرحمن والصاد من الصمد)»، إلى غير ذلك من الأقوال حول الحروف المقطعة في أوائل السور.

وعليه، نجد أن السيوطي يرى أن فوائح السور أسماء من أسماء الرب ﷻ فُرِقت في القرآن. ورغم تباين الأقوال، إلا أنها كلها راجعة إلى قول واحد، وهو أنها حروف مقطعة، كل حرف منها مأخوذ من أسمائه تعالى، وهذا هو القول الذي قال به معظم المفسرين.

وقال صاحب الكشف: "«آلـم» اعلم أن الألفاظ التي يتجهى بها أسماء مسمياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكلم، فقولك ضاد اسم سمي به ض من ضرب إذا تهجّيته، فإن قلت: لم قضيت لهذه الألفاظ بالإسمية، وهلاً زعمت أنها حروف كما وقع في عبارات المتقدمين، قلت: قد استوضحت بالبرهان النير أنها أسماء غير حروف فعلت أن قولهم خالق بأن يصرف إلى التسامح، وقد وجدناهم متسامحين في تسمية كثير من الأسماء التي لا يقدح إشكال في إسميتها كالظروف وغيرها بالحروف، مستعملين الحرف في معنى الكلمة" (٢).

(١) انظر: المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير - إعداد جماعة من العلماء، بإشراف الشيخ صبي الرحمن المباركفوري، دار السلام للنشر والتوزيع - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ص ٢.

(٢) الكشف عن حقائق التزويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جبار الله محمود بن عمر الزنجشيري النوازمي (٤٦٧-٥٣٨هـ)، دار المعرفة، بيروت - لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ١٣/١ - ١٣.

وهذا القول يؤكد ما جزم به الزمخشري بأن حروف الهجاء في فواتح السور أسماء معربة وليست حروفاً، وهذا قول ثانٍ.

وقال صاحب التفسير الوجيز: "«المر» وأمثالها في أوائل السور في القرآن حروف مفردة من لغة العرب تألف منها القرآن الكريم، ومع ذلك فقد ثبت عجز البشر مع تحدي القرآن لهم عن تأليف مثله منها" (١). وهنا يظهر قول آخر يرى أن الحروف المقطعة في أوائل السور حروف وليست أسماء كما قال صاحب الكشف، إلا أن الإمام القرطبي قال: "اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور، فقال عامر الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين: هي سر الله في القرآن، والله في كل كتاب من كتبه سر، فهي من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه، ولا يجب أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت. قاله أبو بكر وعلي رضي الله عنهما وعن عمر وعثمان وابن مسعود رضي الله عنهم أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر" (٢)، وهذا قول ثالث: إنها من سر الله الذي انفرد بعلمه.

ولقد استشهد ابن كثير بقولٍ نسبته للقرطبي فقال: "قال القرطبي وفي الحديث: ((من أعان على قتل مسلم بشر كلمة))، قال سفيان: هو أن يقول في أقتل «أق» (٣) ...، وعن مجاهد أنه قال: فواتح السور كلها «ق و ص و ح م و ط س م والـر» وغير ذلك هجاء موضوع، وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم استغني بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تمة الثمانية والعشرين حرفاً، كما يقول القائل: ابني يكتب في « ا ب ت ث » أي في حروف المعجم الثمانية والعشرين، فيستغني بذكر بعضها عن مجموعها" (٤).

(١) التفسير الوجيز لكتاب الله العزيز، لأسامة عبد الكريم الرفاعي، وبهامشه: كتاب أحكام القرآن، للإمام محمد بن إدريس الشافعي، مؤسسة دار الإعلام - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ص ٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق د. عبد الحميد هندراوي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م، ١/١٢٨.

(٣) ذكره القرطبي ١/١٣٠، وقال المحقق: ضعيف جداً، انظر ضعيف ابن ماجه (ح ٥٧١).

(٤) تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار القلم، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، (د.ت)، ١/٣٦.

وبينما يرى صاحب الإتيقان أن الحروف المقطعة في أوائل السور من المكتوم الذي لا يفسر، يقول القرطبي: "هذا القول في المتشابه وحكمه، وقال جمع من العلماء كبير: بل يجب أن تتكلم فيها، ويلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرج عليها، واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة، فروي عن ابن عباس وعلي أيضاً: أن الحروف المقطعة في القرآن اسم الله الأعظم، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها" (١).

وقال الزنجشري: "وإذا تأملت الحروف التي افتتح الله بها السور وجدتها نصف أسامي حروف المعجم، أربعة عشر: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والخاء، والقاف، والنون، في تسع وعشرين عدد حروف المعجم، ثم تجدها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف: المهموسة والمجهورة والشديدة والمطبقة والمستعيلة والمنخفضة، وحروف القلقلة. ثم إذا استقرت الكلام تجد هذه الحروف هي أكثر دوراً مما يقي، ودليله أن الألف واللام لما كانت أكثر تدواراً جاءت في معظم هذه الفوائج" (٢).

وقد نقل صاحب البرهان في علوم القرآن عن صاحب الكشف، وهذا يثبت أنه يؤيد ما ذهب إليه الزنجشري (٣).

وقال ابن كثير: "مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهي: ا ل م ص ر ك ه ي ع ط ث ح ق ن، يجمعها: نص حكيم قاطع له سر، وهي نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك" (٤).

وبيان ذلك من صناعة التصريف وقوله أشرف فيه نظر، لأن جميع كلام الله، إلا أن يقال أشرف بمعنى أعظم.

وذهب ابن كثير إلى ما ذهب إليه الزركشي في ذكره لما قاله الزنجشري حول هذه الحروف الأربعة

(١) تفسير القرطبي ١/١٧٧.

(٢) الكشف ١/١٧.

(٣) انظر البرهان في علوم القرآن ١/١٢١.

(٤) تفسير ابن كثير ١/٣٦.

عشر، ونلخص بعض ما قاله العلماء فقال: "لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها ﷻ عبثاً ولا سدى، ومن قال من الجهالة إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأ كبيراً، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا: {إِمْتَاطُكُمْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} [آل عمران: ٧]. ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين، وإنما اختلفوا؛ فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليته اتباعه، وإلا فالوقوف حتى يتبين" (١).

وإلى هذا ذهب القرطبي بقوله: "إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء، فأما ما استأثر به لنفسه فلم يبنائيه فلا تسألوا عنه، وأما الذي أطلعكم عليه فهو الذي تسألون عنه وتخبرون به، وما بكل القرآن تعلمون، ولا بكل ما تعلمون تعملون" (٢).

واعلم أن الأسماء المتجهة في أول السور ثمانية وسبعون حرفاً؛ فالكاف والنون كل واحد في مكان واحد، والعين والياء والهاء والقاف كل واحد في مكانين، والصاد في ثلاثة، والطاء في أربعة، والسين في خمسة، والراء في ستة، والحاء في سبعة، والألف واللام في ثلاثة عشر، والميم في سبعة عشر، وهي في القرآن في تسعة وعشرين سورة (٣).

وأكثر هذه السور التي ابتدئت بذكر الحروف ذكر منها:

١ - ما هو ثلاثة أحرف، وما هو أربعة أحرف (سورتان).

٢ - وما ابتدئ بخمسة أحرف (سورتان).

وأما ما بدئ بحرف واحد فاختلفوا فيه، فمنهم من لم يجعل ذلك حرفاً، وإنما جعله اسماً لشيء خاص، ومنهم من جعله حرفاً وقال: أراد أن يتحقق الحروف مفرداً ومنظوماً (٤). ويضيف الطبري أقوال آخرين: بل ابتدئت بذلك أوائل السور ليفتح لاستماعه أسماع المشركين، إذ تواصلوا بالإعراض عن القرآن، حتى إذا

(١) تفسير ابن كثير ٣٦/١.

(٢) تفسير القرطبي ١٢٨/١ - ١٢٩.

(٣) البرهان في علوم القرآن ١٢٢/١.

(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن ١٢٣/١.

استمعوا له وقال بعضهم: الحروف التي هي فوائح السور حروف يستفتح بها الله كلامه.

فإن قيل: هل يكون من القرآن ما ليس له معنى؟ قيل: معنى هذا أنه افتتح بها ليعلم أن السورة التي قبلها قد انقضت، وأنه قد أخذ في أخرى، فجعل هذا علامة انقطاع ما بينهما، وذلك في كلام العرب (١).

ويبدو أن الاختلاف حول الحروف المقطعة بين المفسرين وغيرهم يدور حول ما ذهب إليه الطبري، ولكننا نخلص لتنبهات الزركشي التي جاءت تحت عنوان:

”تنبيهات: لا بد من التنبيه على أحكام تختص بهذه الفوائح الشريفة

الأول: أن البصريين لم يعدوا شيئاً منها آية، وأما الكوفيون فنما ما عدوه آية، ومنها ما لم يعدوه آية، وهو علم توقيفي لا مجال للقياس فيه، كعرفة السور، أما {المر} فأية حيث وقعت من السور المفتحة بها، وهي ست (٢)، وكذلك {المص} آية، و{المر} لم تعد آية، و{الر} ليست بآية من سورها الخمس، و{طس} آية في سورتيها، و{طه} و{يس} آيتان، و{طس} ليست بآية، و{حم} آية في سورها كلها، و{حم} عسق آيتان، و{كهيعص} آية واحدة، و{ص} و{ق} و{ت} لم تعد واحدة منها آية، وإنما عد ما هو في حكم كلمة واحدة آية كما عد {الرحمن} وحده، و{مدهامتان} وحدها آيتين على طريق التوقيف (٣)، ...

الثاني: هذه الفوائح الشريفة على ضربين: أحدهما ما لا يتأق في إعراب، نحو: {كهيعص} و{المر}، والثاني ما يتأق في، وهو إما أن يكون اسماً مفرداً كـ {ص} و{ق} و{ت} أو أسماء عدة مجموعها على زنة مفرد كـ {حم} و{ق} فإنها موازنة لقايل وهليل، وكذلك {طس} يتأق فيها أن تفتح نونها فتصير (ميم) مضمومة إلى {طس} فيجعلان اسماً واحداً.

الثالث: أنه يوقف على جميعها وقف التمام، إن حملت على معنى مستقل لا يحتاج إلى غيره، وذلك إذا لم تجعل

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد عبد الرازق البكري وآخرين، دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م، ١/ ١٧٠ - ١٧١.

(٢) وهي سور البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، والسجدة.

(٣) البرهان في علوم القرآن ١/ ١٢٤ - ١٢٥.

أسماء للسور.

الرابع: أنها كتبت في المصاحف الشريفة على صورة الحروف أنفسها، لا على صورة أساميها، وعلل ذلك بأن الكلمة لما كانت مركبة من ذوات الحروف، واستمرت العادة متى تهجيت، أن يلفظ بالأسماء^(١).

وزاد صاحب مناهل العرفان على ذلك ثلاثة طرائق فيما ترمز إليه هذه الحروف:

”الطريقة الأولى: أن تكون هذه الحروف مقتطعات من أسماء الله ... وتكون مذكرة بالله ﷻ في أكثر الأحوال، وذكر الله أجل شيء، ويرجع الأمر إلى أنها أسماء مرموز لها بالحروف كما تقدم من الأمم السابقة من النصارى، ولكن لا بد أن تكون هناك ما هو أعلى وأجل.

الطريقة الثانية: أن هذه الحروف من أعجب المعجزات والدلالات على صدق النبي ﷺ، وهذا مما ترضاه النفوس، ألا ترى أن حروف الهجاء لا ينطق بها إلا من تعلم القراءة، وهذا النبي الأمي قد نطق بها“^(٢).

وقال ابن كثير: ”من زعم أنها - أي الحروف المقطعة في أوائل السور - دالة على معرفة المدد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطاره“^(٣) ، ولعل في ذلك رداً على أصحاب التفسير الإشاري.

وأورد صاحب الكشف ما أجده فيه رداً على المشركين وغيرهم؛ حيث بين أنه إذا استقرت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألقى الله ذكرها من هذه الأجناس المحدودة مكتوبة بالمدكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته، فكان الله عز اسمه عدّد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى التبكيت لهم وإلزام الحجّة إياهم^(٤).

(١) انظر البرهان في علوم القرآن ١/١٢٥-١٢٦.

(٢) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، لفضيلة الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت،

(د.ط)، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ٢/٢٥٨-٢٥٩.

(٣) تفسير ابن كثير ١/٣٧.

(٤) انظر الكشف ١/١٧.

وقد خلص السيوطي إلى عدة احتمالات لفوائح السور منها:

- أنها أسماء الله ﷻ
- أنها أقسام أقسم الله بها
- قيل: هي أسماء للقرآن، كالفرقان والذكر
- وقيل: هي أسماء للسور
- وقيل: هي فوائح للسور كما يقولون في أول القصائد بل ولا
- وقيل: هي حساب لتدل على مدة هذه الأمة (١).

وقال بعض العلماء: لعل عدد الحروف التي في أوائل السور مع حذف المكر للإشارة إلى مدة بقاء هذه الأمة، وقال ابن حجر: وهذا باطل لا يعتمد عليه. ويرى السيوطي في الحروف المقطعة أنه لولا أن العرب كانوا يعرفون لها مدلولاً متداولاً عنهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي ﷺ، بل تلا عليهم {حَمْر} فصلت و{طه} وغيرها فلم ينكروا بل صرحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة (٢).

وقال السيوطي: "إنها ألفاظ تنبيه لم تعهد لتكون أبلغ في قرع الأسماع" (٣).

وقال الطبري: "كما افتتح ب {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: ٢] و {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ} [الأنعام: ١] ... وكما جعل مفاتيح بعضها تعظيم نفسه وإجلالها بالتسبيح كما قال جل ثناؤه: {سَبِّحْنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا} [الإسراء: ١]، وما أشبه ذلك من سائر سور القرآن التي جعل مفاتيح بعضها تحميد نفسه، ومفاتيح بعضها تمجيدها، ومفاتيح بعضها تعظيمها وتزجيها، فكذلك جعل مفاتيح السور الأخر التي أوائل بعضها حروف المعجم من مدائح نفسه أحياناً بالعلم، وأحياناً بالعدل" (٤).

(١) فقد قالوا: هي حروف من حروف حساب الجمل، دون ما خالف ذلك من المعاني، وقالوا: لا يعرف للحروف المقطعة سوى الجمل (انظر تفسير الطبري، ١/ ١٧٣-١٧٤). وحساب الجمل: هو جعل أعداد لكل حرف من حروف المعجم (انظر: التحرير والتنوير، ٢٠٨/١).

(٢) انظر: الإتيان في علوم القرآن، ١١/٢.

(٣) المرجع السابق نفسه، ١١/٢.

(٤) تفسير الطبري، ١/ ١٧٤.

ويقول الطبري: "والصواب من القول عندي في تأويل مفاتيح السور التي هي حروف المحجم: أن الله - جل ثناؤه - جعلها حروفاً مقطعة ولم يصل بعضها ببعض فيجعلها كسائر الكلام المتصل الحروف: لأنه عز ذكره أراد بلفظه الدلالة بكل حرف على معانٍ كثيرة لا على معنى واحد" (١).

وإلى هذا المعنى ذهب صاحب البرهان في علوم القرآن؛ بقوله: "إن الله ﷻ افتتح السور بهذه الحروف إرادة منه للدلالة بكل حرف منها إلى معانٍ كثيرة، لا على معنى واحد، فتكون هذه الحروف جامعة لأن تكون افتتاحاً" (٢). ويعتبر هذا القول جامعاً للتأويلات كلها، والله أعلم.

وإلى جانب ذلك كله نجد أن العرب تكلمت بالحروف المقطعة نظماً لها ووضعاً بدل الكلمات التي الحروف منها (٣).

أما ابن كثير فقد قال: "لم يجمع العلماء فيها على شيء معين، وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه وإلا فالوقف حتى يتبين" (٤).

وعليه نرى أن فواتح السور مما استأثر الله بعلمه، وباستعراضنا لأقوال العلماء وجمهور المفسرين لم نقف على من جزم بمعنى من هذه المعاني، وهذا يدل على إعجاز فواتح السور، وبيان هذا الإعجاز يؤكد بطلان ما ذهب إليه المدعو - سعد عبد المطلب العدل - الذي زعم أن الحروف المقطعة لغة غير العربية، جاءت معاصرة للقرآن، وتضافر الأدلة التي ذكرناها يدل على أنها عربية لا شك في ذلك.

والغريب أن هذا المؤلف لم يذكر شيئاً عن مؤلفاته العلمية كما هو متعارف عليه عند نشر أي بحث أو كتاب، كل ما قاله المؤلف عن نفسه: إنه باحث إسلامي، كما لم يوضح المؤلف على أي مستوى علمي جاء بحثه. وفي هذا دليل فيما أرى على عدم علمية ما ذهب إليه من إدعاء. وسنبين ذلك في المبحث الثاني.

(١) تفسير الطبري، ١/١٧٥.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/١٢٨.

(٣) تفسير القرطبي، ١/١٢٩.

(٤) تفسير ابن كثير، ١/٣٦.

المبحث الثاني: الحروف (المفصلة بين تحريم القرآن الكريم وعجز البشر)

للمتشابه في القرآن الكريم حكم كثيرة، وتعد فوائح السور عامة، وبحروف الهجاء خاصة، من المتشابه الذي يظهر عجز البشر عن مجاراته والإتيان بمثله.

جاء في مناهل العرفان: المتشابهات أنواع ثلاثة، وإن لهذه المتشابهات المتنوعة حكمة؛ أولاًها: وهو ما استأثر الله بعلمه وفيه حكم أخرى:

١ - رحمة الله بهذا الإنسان الضعيف، الذي لا يطيق معرفة كل شيء، ولهذا الضعف حجب الله عن العباد معرفة آجالهم.

٢ - الابتلاء والاختبار: يؤمن البشر بالغيب ثقة بخبر الصادق أم لا؟ فالذين اهتدوا يقولون: آمنا وإن لم يعرفوا على التحيين، والذين في قلوبهم زيغ يكفرون به.

٣ - إقامة دليل على عجز الإنسان وجهاته، مهما عظم استعداده، وغزر علمه، وإقامة شاهد على قدرة الله الخارقة، وأنه وحده الذي أحاط بكل شيء علماً (١).

ومن دلائل الإعجاز أن ترد السورة مصدرة بحرف مستقل بوجه من الإعراب وتقدمه، وذلك أن النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام، الأميون منهم وأهل الكتاب بخلاف النطق بأسامي الحروف فإنه كان مختصاً بمن خط وقرأ وخالط أهل الكتاب وتعلم منهم، وكان مستغرباً مستبعداً من الأمي التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة (٢). يقول الله تعالى: { وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِمِصْرَةٍ } إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ومن حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفوائح مكررتين، وهي فوائح البقرة وآل عمران والروم والعنكبوت ولقمان والسجدة والأعراف والرعد ويونس وإبراهيم وهود ويوسف والحجر. فإن قلت: فهلاً عددت بأجمعها في أول القرآن وما لها جاءت

(١) انظر مناهل العرفان، ٢/٢٥٨-٢٥٩.

(٢) انظر تفسير الكشف، ١/١٧.

مفرقة على السور؟ قلت: لأن إعادة التنبيه على أن المتحدى به مؤلف منها لا غير، وتجديده في غير موضع وصل إلى الغرض، وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن، فطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقريره^(١)، وفي هذا دليل على أنه التحدي وبيان للعجز.

والحروف المقطعة في القرآن الكريم تعتبر وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم، والقرآن يعتبر معجزة النبي ﷺ الكبرى، وكونه المعجزة الباقية، وهو المعجزة التي تحدى بها الرسول ﷺ معانديه تحدياً صريحاً، وإن كان يعلم وجه إعجازه من عجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله فيغني ذلك عن نظر مجدد، فكذلك عجز أهل كل عصر من العصور التالية عن النظر في حال عجز أهل العصر الأول، ودليل ذلك متواتر من القرآن في عدة آيات تتحدى العرب بأن يأتوا بسورة مثله^(٢).

وجاء في الحديث عجز اليهود عن إدراك كنه الحروف المقطعة في أوائل السور، وذلك في حديث جابر بن عبد الله قال: ((مَرَّ أَبُو يَاسِرٍ بْنُ أَخْطَبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ فَاتِحَةَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: {الْعَمَّ} ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ١-٢])، فَأَتَى حُيَّيَّ بْنَ أَخْطَبَ فِي أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنْ يَهُودٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، أَلَمْ يَذْكُرْ لَنَا أَنَّكَ تَقُولُ فِيمَا أُتِرَ عَلَيْكَ: {الْعَمَّ}، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَلَى، فَقَالُوا: أَجَاءَكَ بِهَا جَبْرِيلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ قَبْلَكَ أَنْبِيَاءَ مَا نَعْلَمُهُ بَيْنَ لَنَبِيِّ مِنْهُمْ مَا مَدَّةُ مُلْكِهِ وَمَا أَكُلَ أُمَّتِهِ غَيْرَكَ! فَقَالَ حُيَّيُّ بْنُ أَخْطَبَ وَأَقْبَلَ عَلَى مَنْ كَانَ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُمُ: الْأَلْفُ وَاحِدَةٌ، وَاللَّامُ ثَلَاثُونَ، وَالْمِيمُ أَرْبَعُونَ، فَهَذِهِ إِحْدَى وَسَبْعُونَ سَنَةً...))^(٣). غير أن ابن كثير يرى أن هذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي وهو ممن لا يحتج بما انفرد به^(٤).

وظل اليهود يسألونه كلما نزل عليه قرآن ويتعاضم عندهم الحروف، ويقولون هذا أثقل هذا أطول، حتى اعترفوا بعجزهم وقالوا: لقد تشابه علينا أمره، ويزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ

(١) انظر الكشف، ١/١٨.

(٢) انظر التحرير والتنوير: المقدمة العاشرة في إعجاز القرآن، ١/١٠٢.

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير، ١/١٠٨.

(٤) تفسير ابن كثير، ١/٧٢.

أَلِكْتَبَ مِنهُ ءَايَتٌ مُّحْكَمَتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأَخْرُمْتُشِيهَتْ { [آل عمران: ٧] (١).

وقال السيوطي: "إن هذه الحروف ذكرت لتدل على أن القرآن مؤلف من الحروف التي هي اب ت ث جفاء بعضها مقطوعاً وجاء تمامها مؤلفاً ليدل القوم الذين نزل القرآن بلغتهم أنه بالحروف التي يعرفونها، فيكون ذلك تقريراً لهم ودلالة على عجزهم أن يأتوا بمثله" (٢).

وعليه تحقق أن هذه الحروف هي علامات المكتوب والمنطوق، وأنها احتوت على جملة المنطوق من جهة الدلالة، ولهذا حصلت في تسع وعشرين سورة، بعدد جملة الحروف، وهذا الاحتواء ليس من كل وجه بل من وجه يرجع إلى النطق والفصاحة وتركيب ألفاظ اللغة العربية، وما يقتضي أن يقع فيه التعجيز (٣).

لذا لما ثبت عجزهم ادعوا أن الله قد خاطبهم، أي خاطب العرب بغير ما هو من لغتهم، وغير ما هو في لغة أحد من الآدميين، وكان الله ﷻ إنما خاطبهم بما خاطبهم في القرآن بما يعرفون من لغاتهم، وليستعملون بينهم من منطقهم في جميع آيه، فلا شك أن سبيل ما وصفنا من حروف المعجم التي افتتحت بها أوائل السور التي هن لها فواتح سائر القرآن في أنه لم يعدل بها عن لغاتهم التي كانوا بها عارفين، ولها بينهم في منطقهم مستعملين، لأن ذلك لو كان معدولاً به عن لغاتهم ومنطقهم كان خارجاً عن معنى الإبانة التي وصف الله ﷻ بها القرآن (٤)، فقال تعالى ذكره: { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٥) } [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]. وفي هذه الآية إخبار من الله تعالى بأن القرآن عربي مبين، ونبأ عنه أن العرب كانوا به عالمين وهو لها مستبين، وفي هذا تكذيب لهذه المقالة (٥).

وأرى أن هذه الحروف هي ضرب من الإعجاز، ولقد أقر عتبة بن ربيعة بأنه ليس بسحر ولا شعر لما قرأ عليه رسول الله ﷺ { حم } فصلت، فإذا اعترف عتبة على موضعه من اللسان، وموضعه من الفصاحة

(١) تفسير الطبري، ١/١٧٥.

(٢) الإتيان في علوم القرآن، ٢/١١.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن، ١/١٢٩.

(٤) انظر: تفسير الطبري، ١/١٧٧.

(٥) انظر: تفسير الطبري، ١/١٧٧.

والبلاغة بأنه ما سمع مثل القرآن قط، كان في هذا القول مقراً بإعجاز القرآن له، ولضربائه من المحققين بالفصاحة والقدرة على التكلم بجميع أجناس القول وأنواعه^(١). ولكن من عجب فقد جاء في كتاب: «المهروغليفية»^(٢) تفسر القرآن^(٣) «غرائب سنستعرض قول كاتبها ثم نرد عليه بما نرى من حق يوفق إليه الله».

يقول الكاتب: "فن قائل بأن هذه الحروف هي أسماء الحروف الهجائية، وآخر يقول: إنها أسماء للسور، وثالث يقول: إنها إعجاز على أنها حروف الكلام، ورابع يقول: إنها أسماء الله تعالى، وخامس يذكر أنها اختصار ومفتاح لأسماء، وسادس يقول: بأنها أقسام"^(٤).

ويرى الكاتب أنها ليست كذلك ويقول: "إن هذه الرموز ليست حروف المعجم، وإن تشابه البعض منها، فالمعروف حروف المعجم يبلغ عددها ثمان وعشرين حرفاً بل ربما تسع وعشرين، والحروف التي ذكرت في أوائل السور لا يزيد عددها على أربعة عشر، وإن قلنا إن {الـ} تشابهت مع الألف واللام والميم في شكلها ونطقها، فإن: {الـ} يتشابه فيها الألف واللام، أما «ر» في القراءات هي «ر» مفتوحة وليست راء، وفي {كهيعص} يتشابه الكاف، ولكن «هيع» لا تتشابه، حيث تقرأ ها يا عين، فهذا ليس النطق الصحيح للهاء والعين، أما {طه} فهي ليست حروف الهجاء «طاء، هاء»، و{طس} ليست طاء، سين، وفي {يس} ليست ياء، سين، إنما ياسين، أما في {حم} فلو كانت حروف الهجاء لنطقت حاء، ميم: وكذا {عسق} فهي تقرأ عين، أما من ناحية إعرابها فنحن لا نرى في القراءات أي تنوين لها، فلو كانت هي من حروف الهجاء لنونت، مثلاً لقلنا أَلَفٌ، لَامٌ، مِيمٌ بالتثنية، وهذا ليس الحال هنا".

ويصل إلى نتيجة في زعمه تنبي أن تكون الحروف المقطعة في أوائل السور حروف الهجاء ولا أسماءها.

(١) تفسير القرطبي، ٧٠/١.

(٢) اللغة المصرية القديمة، ويرى الكاتب أنها كانت لغة عالمية.

(٣) المؤلف: سعد عبد المطلب العدل، الناشر مكتبة مديولي.

(٤) انظر: الإتيان في علوم القرآن، ٨/٢-٩، والبرهان في علوم القرآن، ١٢٧/١، ومناهل العرفان في علوم القرآن،

٢٥٨/٢-٢٥٩.

وأقول لصاحب هذه النظرية ما قاله الزركشي: "أعلم أنه لما كانت هذه الحروف ضرورية في النطق، واجبة في الهجاء، لازمة التقدم في الخط والنطق - إذ المفرد مقدم على المركب - بل في المركب ما في المفرد وزيادة، ولما كان نزول القرآن في أزمئة متطولة، تريد على عشرين سنة، وكان باقياً إلى آخر الزمان؛ لأنه ناسخ لما قبله، ولا تكتب بعده جعل الله حروفه كالعلام" (١).

ثم يرد على من قال إنها أسماء للسور بقوله: "إن الاسم يطلق ليميز المسمى عن باقي الأشياء حتى لا نخطئ، فكيف تسمى سورة البقرة سورة {المر} كيف نميزها عن آل عمران أو سورة لقمان وهي تبدأ بنفس الرمز، أو كيف نميز الحواميم (٢) عن بعضها لو قسمت كلها {حمر}، كذا في الطواسين (٣). وبناء عليه لا يصح هذا الفرض أيضاً. ولمن يقولون إنها وردت لتدل على إعجاز، فلننا نقول لهم: من ناحية أنها إعجاز فهي ولحق كذلك، ولكن ليس لأنها حروف الهجاء بل لأسباب أخرى، ولمن يقول: إنها أسماء لله تعالى، فإنه لا توجد أي إشارة لا في القرآن ولا في السنة في هذا الاتجاه، ولا حتى في سياق الآيات التي وردت فيها يوجد أي احتمال لهذا، فبقي هذا مجرد ادعاء حتى تثبت صحته. وأما الذين يقولون: إنها مفتاح واختصارات لاسم الله تعالى أو لنبه ... فنقول لهم هذا الكلام يفتح باب الاحتمالات لما قد يكون مختصراً ... وحيث إن أصحاب الرأي لم يقدموا ولو دليلاً واحداً يثبت صحة ما يقولون، فتبقى فرضيتهم كما هي في عداد الفرض ونظرية الاحتمالات. وأما من يقولون بأنها أقسام أقسم الله تعالى بها، فذلك من أبواب النحو" (٤).

ونراه يصل إلى نتيجة قاتلة: إن النظرية التي تعتبر هذه الرموز حروفاً قد بدأت تضعف وتهاوى؛ بل إن الاقتراضات التي نحيلنا إلى أشياء غيبية أخذت الآن في الوهن والانحسار لا شيء إلا لأن تفسيراً علمياً أصبح ملحاً وضرورياً (٥). وهذا قول خطير، يريد الكاتب أن يقول في كلام الله برأيه، ويرى أن هذه

(١) البرهان في علوم القرآن، ١/١٢٩.

(٢) الحواميم هي غافر وقصص والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف.

(٣) الشعراء والتل والقصاص.

(٤) الإتيقان في علوم القرآن، ٢/٩.

(٥) كتاب الهيروغليفية تفسير القرآن، ص ١٣.

الرموز ليست حروفاً على الإطلاق، ويستشهد بقول الرسول ﷺ: «(من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول {الـ} حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)» (١)، وعلى هذا بنى فرضيته بأن هذه الرموز هي حروف الهجاء؛ فرضية قديمة.

والفرضية الجديدة التي ذهب إليها: هذه الرموز هي كلمات وجمل (٢).

ونقول في الرد عليه بعون الله: ألا يعلم أن من إعجاز القرآن، الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب: الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال، وتأمل ذلك في سورة {ق وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ} [ق: ١] (٣). ويقول النسفي في تفسيره: "ورود هذه الأسماء على نمط التعدد كالإيقاظ لمن تحدى بالقرآن، وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلو عليهم وقد عجزوا عنه عن آخرهم، كلام منظوم عين ما ينظمون منه كلامهم، ليؤدبهم النظر إلى أن يستيقنوا إن لم تساقط مقدرتهم دونه ولم يظهر عجزهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة وهم أمراء الكلام، إلا لأنه ليس من كلام البشر، وأنه كلام خالق القوى والقدرة" (٤). وفي هذا دليل على أن فوائح السور من إعجاز القرآن، بدليل عجزهم عن فهمه فضلاً عن الإتيان بمثله.

ويرى النسفي أن فوائح السور جاءت مفرقة على السور، لأن إعادة التنبيه على المتحدى به مؤلفاً فيها لا غير أوصل إلى الغرض، وكذا كل تكرير ورد في القرآن فالمطلوب منه تمكين المكرر في النفوس وتقريره، ولم تجئ على وتيرة واحدة، بل اختلفت أعداد حروفها، وأهم ما أشار إليه هنا قوله: "وهذا علم توقيفي لا مجال للقياس فيه" (٥)، إذ زاه يقول: "والتأمل في معنى دلالة الحديث الشريف لا بد أن يكون لفت نظره تلك الجزئية؛ لا أقول {الـ} حرف؛ فن البديهيات أنها ليست حرفاً واحداً وإنما ثلاثة أحرف"، وهو

(١) أخرجه الترمذي، ٩/٣، والجامع الصغير ٣٤٠/٥.

(٢) وهذا الذي جعله يقول إنها اللغة المصرية القديمة.

(٣) انظر: تفسير القرطبي، ٧٠/١.

(٤) تفسير النسفي للإمام الجليل أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمد النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، ٩/١.

(٥) المرجع السابق نفسه، ١٠/١.

الشيء الذي غاب عن صاحب النظرية.

ثم استدلاله بالحديث المتقدم استدلالاً في غير موضعه، إذ نفي أن يكون {الـم} حرفاً تأييداً لما ذهب إليه، والحقيقة أنه جاء للترغيب في الذكر وبيان تعظيم الأجر، إذ الحسنة بعشر أمثالها، وقد جاء في تعظيم ذكر الله عندما جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فاخبرني بشيء أتشبث به قال: «(لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ)» (١). وزعمه أن هذه الحروف أسماء وجمل يعود أصلها إلى اللغة المصرية القديمة، زعم يخالف كتاب الله وسنة رسوله؛ إذ يقول الله في محكم تنزيله: {لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} [النحل: ١٠٣]، وقال: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} {١٣٧} عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

وبرغم صريح القرآن الذي يثبت أن هذا القرآن عربي بشهادة المولى ﷺ، نجد هذا المدعي يقول: "إن بعض هذه الرموز التي تصدرت بها بعض السور مثل ق، ن، لها شكل مميز شبيه بصورة الأفعال في اللغة المصرية القديمة، وبالذات أنها لا تحمل نهايات في آخرها ولا تتغير بتغير الفاعل أو المفعول به، فإن لها صورة واحدة هي صورة المفرد المذكور حتى وإن اختلف فاعلها، من حيث التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية أو الجمع" (٢).

ولقد أثار قوله هذا حفيظة بعض المسلمين، فانبهر علماء منهم بالرد عليه، وهم يحقون في ذلك، تدفعهم الغيرة الشديدة على ديننا العظيم (٣).

قال الدكتور عبد الحليم نور الدين (٤): "هذا المدعي غير عالم بلغات العرب، وقال مجاهد: لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب، فمن هو حتى يتصدى لتفسير

(١) أخرجه الترمذي، ٤٥٨/٥، وأخرجه ابن ماجه، ١٢٤٦/٣.

(٢) اخبروغليقية تفسر القرآن، ص ١٦.

(٣) تابع ردود الأفعال في الشبكة الإلكترونية.

(٤) د. عبد الحليم نور الدين: أستاذ اللغة المصرية القديمة، ورئيس قسم الآثار بجامعة القاهرة، والأمين العام للمجلس الأعلى للآثار سابقاً - في حوار معه في مجلة نصف الدنيا - ذكر أن المؤلف طلب منه أن يقدم للكتاب فرفض ذلك، لأن الأمر ليس بهذه البساطة التي يتوهمها المؤلف - أصلحه الله - على حد قوله.

القرآن الكريم باللغة الهيروغليفية؟ يتبين لنا مستواه الضحل في العلم الشرعي، وإنه يفتقر إلى أساسيات في ذلك، وإنه لم يثن قدمه قط على عالم رباني يريه بصغار العلم قبل كباره، لذلك أثمرت المسألة مازى من عبث ولعب بكلام رب الأرباب فهو يضرب بإجماع المفسرين عرض الحائط، علماً بأن الهيروغليفية ليست لغة قائمة بذاتها، بل هي خط من خطوط المصرية القديمة مثل النسخ والرقعة في اللغة العربية^(١).

يقول هذا، وقد جزم علماء الأمة بأن الحروف المقطعة دالة على إعجاز القرآن^(٢). يرى هذا ويقول الله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف: ٢]، ويقول: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الزمر: ٢٨]، أي هو قرآن بلسان عربي مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ولا لبس بل هو بيان واضح وبرهان، وإنما جعله الله كذلك وأنزله بذلك {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}، أي يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه الوعد^(٣). وقد أكد القرآن على أن هذا القرآن عربي في عددٍ ليس بقليل من سور القرآن الكريم^(٤).

وعليه أرى أن البراهين واضحة بنص القرآن الكريم على أن الحروف المقطعة في القرآن عربية وإن غابت دلائلها على بعض الباحثين، ففرضية صاحب كتاب: الهيروغليفية تفسر القرآن، فرضية جانبها الصواب استناداً لما تقدم من أدلة.

وإن ثبت بطلان فرض أنها حروف، أو أسماء أو غيرها، فهي تظل من إعجاز القرآن، ومن المكتم الذي لا يفسر كما قال أصحاب الرسول رضوان الله عليهم، وفي العلم الذي استأثر الله بعلمه، ولا نملك إلا أن نقول آمنا كل من عند ربنا.

قال الطبري: "القرآن كله عربي، وإنه نزل بالسن بعض العرب، دون ألسن جميعها"^(٥). وحتى من

(١) تابع الشبكة الالكترونية.

(٢) المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، ص ٢.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير، ٤/٤٨.

(٤) فصلت آية (٣، ٤٤)، طه آية (١١٣)، الشورى آية (٧)، الأحقاف آية (١٢) ... الخ.

(٥) تفسير الطبري ٩٠/١.

يرى أن فيه ما ليس عربياً، فقد صار من العربي وله مدلولٌ كغيره من الألفاظ العربية القُحّة. وأرى في هذا صحة ما ذهب إليه في الرد على صاحب اقتراض أن الحروف الهجائية في أول السور هي أسماء وجمل في اللغة المصرية.

وخير دليل على ذلك قول ابن عباس رضي الله عنه: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره» (١). وجاء في تفسير الطبري حديث عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال وحرام لا يعذر أحد بالجهالة به، وتفسير يفسره العرب، وتفسير يفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب» (٢).

وعليه فلا يجوز أن يقول قائل في الحروف المقطعة التي هي من القرآن بغير علم، لأن القائل فيه بغير علم قائل على الله ما لا علم له به.

وعلى هذا الكتاب وأمثاله أن يكفوا عن القول في كتاب الله بغير علم، لقوله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، فالمرء في القرآن كفر - ثلاث مرات - فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه» (٣).

وعليه:

- ١ - فإن منهج التفسير في الكتاب يقوم على اقتراض أن كل حرف من الحروف المقطعة هو كلمة قائمة بذاتها مثل (ن) التي يقول إنها لا بد أن تنطق (نون). وهذا منهج يصعب قبوله.
- ٢ - قوله: إن «أخناتون» هو سيدنا إبراهيم عليه السلام قولٌ في متبى الخطورة، لأنه لا يملك دليلاً مادياً واحداً عليه.

- ٣ - من القضايا الخطيرة قوله: إن آدم عليه السلام عندما نزل إلى الأرض كان يتحدث هو وزوجته حواء اللغة

(١) تفسير ابن كثير، ١٤/١.

(٢) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٠٩٧)، وعزاه إلى ابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٠٠/٢.

المصرية القديمة، وهذا الكلام من الصعب أن يقبله أحد، لأنه بلا دليل، ومن شخص غير متخصص.
٤ - ارتكب أخطاء عندما قال: اللغة المصرية القديمة لا تعرف أدوات التعريف أو النكرة، علماً بأن هذه الأدوات معروفة للمبتدئين.
وعليه ثبت أن هذا المؤلف يتكلم في كتاب الله بغير علم، ليخدع جهال الناس.

المبحث الثالث: هل في القرآن الكريم ألفاظ غير عربية

نجد أن هنالك بعض الأقوال التي تقول بوجود ألفاظ غير عربية في القرآن الكريم، إلا أن الطبري قال: "إن سألنا سائل، فقال: إنك ذكرت أنه غير جائز أن يخاطب الله أحداً من خلقه إلا بما يفهمه، وأن يرسل إليه رسالة إلا باللسان الذي يفهمه فما أنت قائل فيما قاله ابن عباس: {إِنَّ نَافِثَةَ الثَّيْلِ} [المزمل: ٦] قال: ((بلسان الحبشة إذا قام الرجل من الليل، قالوا: نشأ))" (١).

وأورد عدداً من الآيات مثل قوله تعالى: {يَنْجِبَالُ أَوْيَ مَعَهُ} [سبأ: ١٠] قال: "سيحي بلسان الحبشة"، وقوله: {فَرَزَتْ مِنْ قَسَوَرَجٍ} [المدثر: ٥١] قال ابن عباس: «هو بالعربية الأسد، وبالفارسية شار، وبالنبطية أرباء، وبالحبشية قسورة» (٢).

يقول الطبري: "إن الذي قاله من ذلك غير خارج من معني ما قلنا، من أجل أنهم لم يقولوا هذه الأحرف وما أشبهها لم تكن للعرب كلاماً، وما كان ذاك لها منطقاً قبل نزول القرآن، ولا كانت بها العرب عارفة قبل مجيء الفرقان، فيكون ذلك لقولنا خلافاً" (٣).

"كما قد وجدنا فيما قد علمناه من الألسن المختلفة، وذلك كالدرهم، والدينار، والدواة، والقلم والقرطاس وغير ذلك مما يتعب إحصاؤه ويمل تعداده، كرهنا الإطالة بذكره، مما اتفقت فيه العربية والفارسية، باللفظ

(١) تفسير الطبري، ٥٦/١.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير: «تفسير سورة المدثر».

(٣) تفسير الطبري، ٥٧/١.

والمعنى، ولعل ذلك كذلك في سائر الألسن“ (١).

وعليه فقد تبين خطأ من زعم أن في القرآن من كل لسان، إنما عنى بذلك أن فيه من البيان ما ليس بعربي. ويقول صاحب البرهان في ذلك: ”أعلم أن القرآن أنزله الله بلغة العرب، فلا يجوز قراءته وتلاوته إلا بها، لقوله تعالى: { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [يوسف: ٢]، وقوله تعالى: { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ؕ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ } [فصلت: ٤٤]، الآية تدل على أنه ليس فيه غير العربي، لأن الله تعالى جعله معجزة شاهدة لنبيه ﷺ، ودلالة قاطعة لصدقه، وليتحدى العرب العرباء به، ويحاضر البلغاء والفصحاء بآياته، فلو اشتمل على غير لغة العرب لم تك له فائدة، هذا مذهب الشافعي وهو قول جمهور العلماء، منهم أبو عبيدة، ومحمد بن جرير الطبري، والقاضي أبو بكر الطيب في كتابه «التقريب» وأبو الحسين بن فارس اللغوي وغيرهم“ (٢).

والذين قالوا إن في القرآن الكريم ألفاظاً غير عربية كاللغة العبرية والفارسية والرومية والحبشية واليونانية أغلبهم من المستشرقين وقد ناقشهم الدكتور عبد الرحمن بدوي قائلاً: ”ولكي نفترض صحة هذا الزعم فلا بد أن محمداً كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولا بد أنه كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل كتب الأدب التلمودي، والأنجيل المسيحية، ومختلف كتب الصلوات وقراءات المجامع الكنسية، وكذلك بعض أعمال الآباء اليونانيين“، ويعلق بقوله: ”هل يمكن أن يعقل هذا الكلام الشاذ لهؤلاء الكتاب وهو كلام لا برهان عليه! إن حياة النبي ﷺ قبل ظهور رسالته وبعدها معروفة للجميع ولا أحد قديماً أو حديثاً يمكن أن يؤكد أن النبي ﷺ كان يعرف غير العربية، إذاً كيف يستفيد من هذه المصادر كما يدّعون!“ (٣).

ونستطيع الرد عليهم بأن هذه الألفاظ التي في القرآن الكريم كلها عربية، على أن اللغات العربية والعبرية

(١) المرجع السابق نفسه، ٥٧/١.

(٢) البرهان في علوم القرآن، ٢٠١/١.

(٣) د. عبد الرحمن بدوي، مفكر مصري وأستاذ فلسفة، يعتبر أحد أبرز أساتذة الفلسفة العرب في القرن العشرين، وأغزرهم تناجاً، شملت أعماله أكثر من ١٥٠ كتاباً تتنوع بين التحقيق والترجمة والتأليف، ولد بمصر عام ١٩١٧م وتوفي بها عام ٢٠٠٢م (انظر: الموسوعة الإلكترونية الحرة).

والسريانية تنتمي إلى سلالة واحدة وهي سلالة اللغات السامية ولا بدّ من أجل ذلك أن يكون بينها الكثير من التشابه والتماثل^(١). ويؤكد ذلك الطبري بقوله في اللغة التي نزل بها القرآن: "قد دللنا على صحة القول بما فيه الكفاية لمن وفق لفهمه، على أن الله جل ثناؤه أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من ألسن سائر أجناس الأمم، وعلى فساد قول من زعم أن منه ما ليس بلسان العرب ولغتها"^(٢).

وفي هذا رد على صاحب النظرية الذي يزعم أن الحروف المقطعة هي اللغة المصرية القديمة. ونقول: لو كان في القرآن من لغة غير العرب لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله، لأنه أتى بلغات لا يعرفونها.

وذكر ابن جرير ما ورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظ من القرآن أنها بالفارسية والحبشية والنبطية أو نحو ذلك إنما اتفق فيها توارد اللغات فتكلت بها العرب والفرس والحبشة بلفظ واحد، وقال غيره: بل كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعد مخالطة لسائر الألسنة في أسفارهم فعلقت من لغاتهم ألفاظاً غيرت بعضها بالنقص من حروفها واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الفصيح^(٣)، ولعل هذا هو الأقرب للصواب، وأورد السيوطي في الإتيان ألفاظاً قال: إنها الألفاظ المعربة في القرآن، وقد نظم تاج الدين بن السبكي منها سبعة وعشرين لفظاً، وذيل عليها الحافظ ابن حجر بأبيات فيها أربعة وعشرون، وقال السيوطي: وذيلت عليهما بالباقي وهو بضع وستون فتمت أكثر من مائة لفظة:

| | |
|---|---|
| السَّنَسَبِيلُ وَطَهَ كُورَتْ يَبَعُ | رُومٌ وَطُوبَى وَسَجِيلٌ وَكَافُورُ |
| وَالزَّنَجِيلُ وَمَشْكَاةُ سُرَادِقِ مَعُ | إِسْتَبْرَقِ صَلَوَاتٍ سُنْدُسُ طُورُ |
| كَذَا قَرَاتِيْسُ رَبَّائِيهِمْ وَعَاسَا | قُتُمٌ دِينَارُ وَالْقِسْطَاسُ مَشْهُورُ ^(٤) |

وهذا على سبيل المثال، وبرغم ذلك فالراجح أن لغة القرآن لغة عربية صرفة، وهذا يدحض اقتراء من

(١) الموسوعة الإلكترونية الحرة.

(٢) تفسير الطبري، ٦٠/١.

(٣) انظر: الإتيان في علوم القرآن، ١٣٦/١-١٣٧.

(٤) المرجع السابق نفسه، ١٤٠/١ - ١٤١.

قال إن الحروف المقطعة هي اللغة المصرية القديمة، ونخلص إلى أن القرآن عربيٌّ صريح.

الخاتمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

فبعد توفيق الله تعالى لإتمام هذا البحث، أبرز ما توصلت إليه من نتائج على النحو التالي.

النتائج

- دارت أقوال العلماء والمفسرين حول معنى الحروف المقطعة في أوائل السور على عدة معانٍ منها:
- وإنما ذكرت ليعرف بها أوائل السور، وتوصل البحث إلى أن هذا القول ضعيف، لأن الفعل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه، وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة (١).
- وقال آخرون: بل ابتدئ بها لتفتح لأسماعها أسماع المشركين إذ تواصلوا بالإعراض عن القرآن.
- وظهرت آراء ترى أن هذه الحروف ذكرت في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته.
- وقال بعضهم: هذه الحروف لم ترد كلها مجموعة في أول القرآن، وإنما تكررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيك، وهذا ما بيّنه البحث.
- ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف، فلها أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته في تسع وعشرين سورة.
- أثبت البحث ما جاء في تفسير القرطبي ما يفيد بأن الحروف المقطعة لا توجد إلا في أوائل السور، ولا

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ٣٧/١.

ندري ما أراد الله ﷻ بها (١).

- كما أوضح البحث أنها حروف إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب، حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم، إذ لم يخرج عن كلامهم.

- وبين البحث أن هناك من رأى أنها حروف دالة على أسماء أخذت منها، وحذفت بقيتها، كقول ابن عباس: الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد.

- وثبت أن هناك من يقولون إنها أقسام أقسم الله تعالى بها.

- ردّ البحث على صاحب كتاب الهيروغليفية تفسر القرآن في قوله الخطير: "إن الاقتراضات التي تحيلنا إلى أشياء غيبية أخذت الآن في الوهن والانحسار لا شيء إلا لأن تفسيراً علمياً أصبح ملحاً وضرورياً"، وهذا ينافي الإيمان، لأن الله مدح الذين يؤمنون بالغيب بقوله: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [البقرة: ٣]، وأصل الغيب كل ما غاب عنك من شيء (٢).

- أثبت البحث أن ألقاظ القرآن الكريم عربية، وأن الله قد أنزل القرآن بلغة العرب، ولو اشتمل على غير لغة العرب لم تكن له فائدة.

التوصيات

- يوصى الباحث طلاب العلم بالتصدي لمثل هذه النظريات بالرد عليها وتنفيذها حتى لا تخلط على الأمة أمر دينها.

- ونرى أن التسليم للمتشابه - الذي استأثر الله بعلمه، وحجب علمه عن خلقه - والإقرار بأن كل ذلك من عند الله، أمر يجب أن يمثل له كل مؤمن، وأن نرد علم ما لا نعلم لله ﷻ، وهو ولي ذلك والقادر عليه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) انظر: تفسير القرطبي، ١/١٢٨.

(٢) تفسير الطبري، ١/١٨٥.

قائمة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. الإتقان في علوم القرآن، لشيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي الشافعي - وبهامشه إعجاز القرآن القاضي أبي بكر الباقلاني - المكتبة الثقافية، بيروت - لبنان، (د.ط)، (د.ت).
٣. البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الكريم الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٤. تفسير التحرير والتوير، للأستاذ الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سخنون للنشر والتوزيع، تونس، (د.ط)، (د.ت).
٥. تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار القلم، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، (د.ت).
٦. التفسير الوجيز لكاتب الله العزيز، لأسامة عبد الكريم الرفاعي وبهامشه كتاب أحكام القرآن للإمام محمد بن إدريس الشافعي، مؤسسة دار الإعلام، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٧. تفسير النسفي، للإمام الجليل أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
٨. الجامع لأحكام القرآن الكريم، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، تحقيق د. عبد الحميد هندراوي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.
٩. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد عبد الرازق البكري وآخرين، دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.
١٠. سنن ابن ماجه، للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، (د.ط)، (د.ت).
١١. سنن الترمذي: لأبي عيسى محمد بن سورة الترمذي، دار سخنون للطباعة، تونس، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

١٢. الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧-٥٣٨هـ)، دار المعرفة، بيروت - لبنان، (د.ت)، (د.ط).
١٣. المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، إعداد جماعة من العلماء بإشراف صبي الرحمن المباركفوري، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
١٤. مناهل العرفان في علوم القرآن، لفضيلة الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، (د.ط)، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
١٥. الهيروغليفية تفسر القرآن، لسعد عبد المطلب العدل، مكتبة مديولي ٢٠٠٢م.